حضور اللسانيات في التنظير الأسلوبي العربي المعاصر
دراسة في نقد النقد

الأستاذة: غنية بوضياف
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
محمد خيضر– بسكرة

إن الدارس لتاريخ النقد يجده تاريخ علاقة إشكالية بين وضعين : وضع العلم , ووضع الفن الماثل في الأدب , لذا كان النقد يعقد علاقة وثيقة بين العديد من العلوم كعلم النفس وعلم الأدب وعلم الاجتماع وعلم اللغة وغيرها .

وفي هذه الدراسة نحاول الكشف عن شكل تمثّل أحد هذه العلوم وهو علم اللغة في التنظير النقدي الأسلوبي العربي , إذ يعد مصطلح الأسلوبية من أهم المصطلحات التي راجت بها الساحة النقدية والتي راح العديد من النقاد يعتمدون عليها كثيرا في تحليل النص الأدبي , وبذلك يتضح لنا إن العلاقة بين النقد الأدبي واللسانيات لها مظهران : مظهر يرجع إلى السلف ويتمسك بنهجهم في دراسة الأدب وهم الذين يقولون بالأصالة النقدية , ومظهر آخر يقر بالتنظير وبعلاقة النقد باللسانيات خاصة عند اللذين انحازوا إلى النص وابتعدوا به عن مجال التاريخ والايديولوجيا ليلتجأ الناقد الأدبي إلى آليات تمكنه الدخول إلى أغوار النص وعوالمه واكتشاف تشكيله بصفته فعل خلق باللغة وعبر اللغة .(فنظرية الخطاب الأدبي في النقد الحديث تنطلق من الإقرار بحتمية الاستكشاف اللساني في فحص الحدث الإبداعي وما يقرره عالم اللسان لتدعيم العمل الأدبي) (1)

ومن هنا أصبح اللجوء إلى اللسانيات بصفتها نموذج لدراسة الكلام عاملا من العوامل التي تكسب النقد (مقومات التجدد والحداثة)(2) .وأقوى مظهر حددته علاقة النقد الأدبي بعلم اللغة كان مقرونا بعلم (الأسلوبية) , حيث استفادة هذه الأخيرة من علم اللسانيات الذي أرسى دعائمه العالم السويسري (دوسوسير) والذي تتلمذ على يديه أحد أعمدة الأسلوبية وهو (شارل بالي) أخذا بالمفاهيم اللغوية اللسانية ومحاولا اتباع نهج جديد

ينحرف به عن مسار أستاذه ,لذا بقيت الأسلوبية متكئة على علم اللغة رغم محاولتها الاستقلال عنه يقول المسدي (الأسلوبية وصف للنص حسب طرائق مستقاة من علم اللسان)(3) من هذا المنطلق أصبح النقد الأدبي موضع نقاش إذ نجده في بعض الأحيان شاملا للأسلوبية وأحيانا أخرى مانعا من الدخول فيها أو مانعا لها من اقتحام مجاله ,مما أدى إلى ظهور أفق أخر للنقد الأدبي يتوجب على الناقد معرفته والعمل به وقد حدده أحمد درويش في (4) :

_ ينبغي على النقد أن يكون داخليا و أن يأخذ نقطة ارتكازه في محور العمل الأدبي لا خارجه

_ إن جوهر النص يوجد في روح مؤلفه لا في الظروف الخارجة عنه

_ على العمل الأدبي أن يمدنا بمعاييره الخاصة لتحليله

_ إن اللغة شخصية المؤلف وتظل غير منفصلة عن بقية الوسائل الفنية الأخرى التي يملكها

_ إن العمل الأدبي بصفته حالة ذهنية لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال الحدس والتعاطف

ونفهم مما سبق أن درويش يركز على النص في ذاته ملغيا كل الأمور الخارجة عنه ,والنص وحده من يتيح معايير التحليل للقارئ . وهذا ما جعل النقاد يبحثون في علاقة النقد بالأسلوبية من ناحية الاتفاق والاختلاف إذ نجد فتح الله احمد سليمان يعرّف الأسلوبية بقوله :(علم وصفي يبحث الخصائص والسمات التي تميز النص الأدبي بطريق التحليل الموضوعي للأثر الذي تتمحور حوله الدراسة الأسلوبية وفي هذه النقطة تتحدد علاقة الأسلوبية والنقد الأدبي بزوايا التقارب والتباعد ونقاط الاتفاق والاختلاف) (5). مما جعل العديد من النقاد الأسلوبيين يرون أن العلاقة بين النقد والأسلوبية هي علاقة اختلاف , بل راح العديد منهم إلى التنكر فيها للنقد الأدبي إذ نجد خليل البدراوي في دراسته لأسلوب طه حسين يقول: (العمل الذي أقوم به لا يعد من المباحث الأدبية بلاغية أو نقدية , وان كان يخدمها , وإنما هو عمل لغوي يدخل ضمن دراسات علم اللغة) (6).وبهذا القول الذي قدمه البدراوي نجده ينفي صفة النقد على الخطوات التي سلكها في التحليل ليضمها إلى علم اللغة ليحذو بذلك حذو العديد من النقّاد الذين يقرّون بالصلة بين علم الأسلوب واللسانيات معتبرين أن الأسلوبية اشتقت من رحم اللسانيات وترعرعت في

ظله إلا أنها بدأت بعد ذلك في التطور والتحول وعلى الرغم من كل المحاولات التي سلكتها الأسلوبية للإنعتاق والاستقلالية كما يظن بعض الباحثين أنها تفرعت عن النقد الأدبي (7) , جاعلين من العلاقة بين النقد والأسلوبية علاقة تقارب وتداخل واحتواء لتكون الأسلوبية قد (ولّدت صلتها بالأدب مذهبا في ممارسة النص جديدا أطلقوا عليه الأسلوبية (علم الأسلوب) يرجى من ورائه إلى احتواء الكلم الأدبي وجعل النقد فنا من أفنان شجرتها التي تفرعت بشكل يدعو إلى الدهشة)(8) أي أن الأسلوبية لها القدرة في أن تحتل مكانة النقد و أن تحيط بموضوعه وترمم نقائصه , ليطالعنا عبد السلام المسدي بموقفه المتمسك بالنقد جاعلا منه الأصل والشجرة التي تفرعت عنها الأسلوبية يقول :(الأسلوبية ضرب من النقد القائم على التعاطف مع الأثر وصاحب الأثر) (9) ,ليكزن موضوع الأسلوبية هو النص وصاحبه لا غير إلا أن الدارس لهذا القول يتبين له أن هذا التصور لا يليق بكل أنواع الأسلوبية , بل يمكن أن يتوافق مع نوع واحد فقط وهو أسلوبية التعبير أو مايطلق عليها أسلوبية الكاتب .

وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها النقاد لإخراج الأسلوبية من دائرة علوم اللغة إلا أنها في مضامينها بقيت تعتمد اللغة عنصرا مشرقا يقول المسدي (اللغة هي القاطع المشترك لدائرتين متداخلتين , فهي للألسنية موضوع العلم ذاته وهي للأدب المادة الخام شأنها شأن الحجارة للنحات والألوان للرسام والأصوات لواضع الألحان) (10).

ومن هذا المنطلق نفهم أن اللغة هي النبض الذي يخلق الحياة في كل فن بحسب مادته الخام التي تبني لحمته وتشكل هيكله ليخرج في صورته النهائية , بذلك فالأسلوبية تنهل من معين اللغة الذي لا ينضب بما يحقق الاكتفاء الذاتي لها , ولما كانت الأسلوبية تنشد الموضوعية العلمية والصرامة المنهجية راحت تأخذ من اللسانيات آليات تحليلها والاقتداء بمبادئها , كون الألسنية لها من الانضباط المنهجي ما أهلها أن تكون علما مضاهيا للعلوم الصحيحة . (11)

ليضيف شكري عياد الرأي نفسه , مؤكدا استناد علم الأسلوب في نشأته وتطوره إلى علم اللغة وكان مجرد فرع تابع له ولم يتفق له التخلص من هذه التبعية أو عقاله منها) (12) ذلك أن الأسلوب هو الشخص في تعالقه الدائم مع زاده اللغوي ما يطرح ضمنيا تبعية الأسلوب لعلم اللغة , إذ لم تستطع الأسلوبية أن تحيد عن هذا العلم لتبقى (وصفا للنص الأدبي حسب مناهج مأخوذة من علم اللغة) (13). أي أننا لا نستطيع أن نهتدي

لمكامن النص الأدبي ما لم نحلل علاقته اللغوية ونستكشف قيمتها التعبيرية , ليقابلنا فتح الله احمد سليمان برأي يقرّ فيه بالاختلافات بين الأسلوبية والنقد يقول : (الأسلوبية علم وصفي يبحث الخصائص والسمات التي تميز النص الأدبي بطريق التحليل الموضوعي للأثر الذي تتمحور حوله الدراسة الأسلوبية وفي هذه النقطة تتحدد علاقة الأسلوبية والنقد الأدبي بزوايا التقارب والتباعد ونقاط الاتفاق والاختلاف) (14) وهو هنا يوجب على الأسلوبي ألا يدعي صفة الناقد و بل عليه الالتزام بنموذج علم يقف وراء أسلوبيته لا يعنى بنظريات الأدب أو تاريخه أو مرجعيته , لأن النص الأدبي ليس له صفة أدبية متحكمة في النظر إليه , بل له لغة ذات خصائص نوعية تسلط عليها قواعد النموذج اللساني .

أما حمادي صمود نجده يطرح سؤالا إنكاريا لا يدع فيه مجالا للشك في أن الأسلوبية لا يمكن أن تجد أطرها في النقد الأدبي بل في مجال اللسانيات والنماذج اللسانية يقول : (هل يستقل علم بموضوع إذا لم يستقل بمنهج , وهل يمكن للأسلوبية أن تحقق غايتها من الظاهرة الأدبية باستعمال منهج علوم اللسان) (15).

وتمتد الإجابة على هذا السؤال الإنكاري بحقيقة مفادها أن الأسلوبية لا يستقيم عودها ولا يفصح لسانها ما لم تتخذ علوم اللسان حقلا خصبا لها , إذ يضع الناقد حمادي صمود النقد بعيدا عن الأسلوبية , ليقرّب بين هذه الأخيرة وعلم اللغة كأساس للدراسة والتحليل في النصوص الأدبية.

كما نجد المسدي يرى أن الأسلوبية لم تبلغ درجة الاكتمال الذي يجعلها في مصاف العلم , وهو أميل إلى القول بأنها تعانق العلوم اللسانية وذلك لعدم فصلها بين الشكل والمضمون مركزة على النص في ذاته , فالأسلوبية (تتحدد بكونها البعد ألألسني لظاهرة الأسلوب طالما أن الجوهر الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر صياغته الابلاغية , ويتدقق هذا التعريف ذو البعد ألألسني شيئا فشيئا حتى يتخصص بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبير ومدلول محتوى صياغته ... وسيقصر التفكير الأسلوبي نفسه على النص في حد ذاته بعزل كل مايتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية).(16)

ليلتقي شكري عياد مع الدارسين السابقين في القول بأن إفادة الأسلوبية من مبادئ اللسانيات و إجراءاتها أمر طبيعي بل ضروري حتى نأمن الأحكام الانطباعية الجائرة في كثير من الأحيان, إلا انه رغم كل ذلك يصر على ضرورة الفصل بينهما وإلا انتفت خصوصية الأسلوبية وانعدم ما تتحدد به كمبحث متميز عن اللسانيات , موضحا أن

اللسانيات تدرس اللغة في ذاتها ولذاتها بصرف النظر عن الوظائف التعبيرية للرسالة , فيما تلتقط الأسلوبية هذه الوظائف (المرتبطة بالتأثير الانفعالي في المتلقي وما يترتب عليها من توصيل شحنة انفعالية) (17) اذ نجد علم اللغة يتحرك ضمن إستراتيجية مقننة تحكمها ضوابطك نحوية , في حين أن الأسلوبية تمارس الانزياح وخرق ترسانة التركيب النحوي .وهذا ما يقر به صلاح فضل إذ يرى أن علم اللغة ينصرف إلى دراسة الشفوي في حين يعنى علم الأسلوب بدراسة النصوص المكتوبة بمختلف أنواعها مقصيا من مجاله جميع أشكال المنطوق , فالخطاب الشفوي يرمي إلى التعبير المباشر عن الحاجات وتبليغ المقاصد بأقرب السبل وأبسط الوسائل , من ثم كان نزوعه العفوية , فيما يخضع الثاني(المكتوب) لمواصفات وسنن بيانية وجمالية تبعده عن العفوية وعن النزوع إلى تبليغ الرسالة تبليغا مباشرا نفعيا . (18)

إلا أن صلاح فضل لا ينفي متانة الروابط القائمة بين الأسلوبية واللسانيات , و بأن تلك تستمد من هذه معاييرها وتوظف مبادئها المنهجية حتى عدّت فرعا جزئيا منها تخضع لشروطها العامة في التحليل(وتقف في معظم الحالات إلى جوار النظرية النحوية وتماثلها) (19).

وصفوة القول أن الأسلوبية هي مشروع إغرائي تزداد فاعليته على بساط اللغة وباللغة , فهي منهج نقدي يستقرء المتون الأدبية وفي الآن ذاته هي امتداد للمد ألألسني رغم كل محاولات التمرد والتجاوز لخلق علم مستقل بذاته إلا أنها مازالت تنهل اللغة وتتحرك ضمن قواعدها وضوابطها , بيد أنها عند ثلة من النقاد هي منهج نقدي له آلياته الحادة في تعامله الجاد مع النصوص . ومن هذا التركيب يستقيم الرأي في اعتدال يعكس ائتلاف الأسلوبية مع علم اللغة وآليات النقد أي أن الأسلوبية تشتغل في موقع وسط بين محطتين هما اللغة والأدب فهي موصولة بهما ومرتبطة بحضورهما معا.

الهوامش :

1- عبد السلام المسدي , النقد والحداثة , دار الطليعة , 1983 , ص 42.

2- نفسه , ص 35 .

3 – نفسه , ص 88 .

4- أحمد درويش , " الأسلوب " , مجلة فصول , ع 1 , مجلد 15 , الهيئة المصرية العامة , مصر , ديسمبر , 1984 , ص 67 .

5- فتح الله أحمد سليمان , الأسلوبية , الدار الفنية , 1990 , ص 30 .
6- خليل البدراوي , أسلوب طه حسين دار المعارف , 1982 , ص 38 .
7- فتح الله أحمد سليمان , الأسلوبية , ص 32 .
8- حمادي صمود , في نظرية النقد , نادي جدة الأدبي , 1990 , ص 195 .
9- عبد السلام المسدي , النقد والحداثة , ص 48 .
10- عبد السلام المسدي , الأسلوب والأسلوبية , الدار العربية للكتاب , تونس , 1977 ,ص 42 .
11- ينظر , محمد الناصر العجمي , النقد العربي ومدارس النقد الغربية , دار محمد علي الحامي , صفاقس , ط1 1998 , ص 153 .
12- شكري محمد عياد , مدخل إلى علم الأسلوب , منشورات أصدقاء الكتاب , ط 11 , 1992 , ص 22.23 .
13- عبد السلام المسدي , الأسلوب و الأسلوبية , ص 44 .
14- فتح الله أحمد سليمان , الأسلوبية , ص 30 .
15- حمادي صمود , في نظرية الأدب عند العرب , النادي الأدبي , جدة , 1990 , ص 208 .
16- عبد السلام المسدي , الأسلوب و الأسلوبية , ص 30 .
17- شكري محمد عياد , " الأسلوبية الحديثة " مجلة فصول, ع 1 , الهيئة المصرية العامة , مصر , يناير 1981 , ص 124 .
18- صلاح فضل , علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته , دار الأفاق , بيروت , 1985 , ص 114 .
19- صلاح فضل , علم الأسلوب , ص 115.